منهج التسامح في الإسلام وآثاره الواقعية

د. مشاعة جهيم العتيبي

جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

Meshaa johaim magbol alotaibi

Toleransein Islam and it's real effects

مقدمة:

الحمد لله فاتحة كل عمل وتمام كل نعمة، وأصلي وأسلم على رسول الله، المبعوث لخير أمة .. وبعد: إن الإسلام دين شامل للحياة كلها، وصالح لكل زمان ومكان، ينظم علاقات الإنسان مع الإنسان، والإنسان مع الموجودات، والموجودات مع بارئها، في بيان يجلي الحقائق، ويؤكد أن الله قد هيأ لشريعة الإسلام أن تكون خاتمة الشرائع، بما حباها من شمول ويسر وقيم سامية. ومن مبادئ الإسلام السامية التسامح، الذي تدعو إليه نصوص القرآن والسنة، وهذه السماحة تتسع لمجالات الحياة المختلفة؛ لذلك فإن الإسلام وإن كان لا يقر بأحقّية الدين الآخر؛ فالدين عند الله هو الإسلام، في مقابلة لا يعترف بالحقد الديني، وإنما يقرر قواعد في هذا الباب، منها قوله تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[2]، ومن ثم قامت العلاقة بين جماعة المسلمين وبين مخالفيهم على التسامح، بل قد تكون هذه التسمية أقل من الحقيقة الواقعية، إذ نلحظ أن الشعوب التي لا تعتنق الإسلام، وإنما تخضع سلمياً لتشريعه ودولته لا تتمتع بمبدأ التسامح فحسب، بل إن الإسلام يأخذ على عاتقه توفير لهم ما للمسلمين من متطلبات الحياة[3].من هنا تكمن أهمية البحث، إذ يعبر عن تميز هذا الدين الذي يدعو للتواصل مع الآخر، ويدحض المفاهيم الخاطئة التي تروج ضد الإسلام، ويجلي ما يتصل بكثير من المفاهيم الإسلامية التي تتصل بهذا المبدأ. مؤكداً قدرة المنهج الإسلامي في ضوء قواعد ثابتة، بعمقها روح الجد في تنفيذها، ونبل المقصد.

المبحث الأول
التأصيل اللغوي والاصطلاحي للتسامح

في اللغة: (سمح) أصل يدل – في عمومه – على السلاسة والسُّهولة[4]. وخلاصة ما أوردته معاجم اللغة لهذه المادة اللغوية من معانٍ نختزلها في مدلولين، **الأول:** معنى الجود والكرم. قال ابن منظور: "والسماحُ والسماحة: الجود... وسمح وأسمْح إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء[5]، **والآخر:** التسَّاهل، فالمسامحة: المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا، وسمح وتسّمح: فعل شيئاً فسهل فيه[6].**وفي الاصطلاح:** وقف العلماء على تعريفه كالمودودي، والنبهان وابن عاشور ... وغيرهم، فيرى فيه المودودي: "أن نتحمل عقائد غيرنا وأعمالهم على كونها باطلة في نظرنا، ولا نظن فيهم بما يؤلمهم، رعاية لعواطفهم وأحاسيسهم، ولا نلجأ إلى وسائل الجبر والإكراه لتصريفهم عن عقائدهم، أو منعهم مما يقومون به من الأعمال". وعند الدكتور عبد الله الطريقي: "هو التعامل مع غير المسلم وفق الحكمة واللين والمعروف، سواء في ذلك التعامل في الخطاب، أو في مطلق التصرف"[7]، أما الدكتور محمد فاروق النبهان، فقد جعل نقطة اهتمامه في تعريفه للتسامح التعايش والتواصل، إذ يقول: "التساكن والتعايش في إطار رؤية إسلامية تحترم حق الآخر في الرأي والعقيدة والفكر"[8]. كما يرى الطاهر بن عاشور أن السماحة: "سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل، وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط– أو هي عبارة عن – السهولة المحمودة فيما يظن الناس التشديد فيه، ومع كونها محمودة أنها لا تفضي إلى ضرر وإفساد[9].والملاحظ في هذه

---

(1)سورة البقرة الآية: ٢٥٦.

(2)سورة الكافرون الآية: ٧.

(3)لمحات في الثقافة الإسلامية: للشيخ عمر بن عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة – بيروت ط٩، ١٤٠٤ه–١٩٨٤م، ص ٢٢٧.

(4)معجم مقاييس اللغة، دار صادر ، بيروت، ٢٠١٢م، ٩٩/٣.

(5)لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٩م، ٤٨٩/٢.

(6)المصدر نفسه ٤٨٩/٢.

(7)الثقافة والعالم الآخر: د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، دار الوطن – الرياض، ط١، ١٥١٥ه–١٩٩٥م، ص٥٨. آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٦٢م، ص ١٨.

(8)مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية، مجلة المنهل، العدد ٥١٨، ص٢٢.

(9)مقاصد الشريعة الإسلامية: للطاهر محمد بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ٦٠–٦١.

التعريفات: أنها أخذت بالفهم اللغوي للفظة "السماحة"، وخصصته لمسلك التعامل، وتحديد علاقة المسلم مع الآخر، التي تتسع للفكر، والرأي، والمشاعر، والتعايش، وما يترتب على هذه الأمور من علاقات إيجابية وفاعلة، وأنها لم تحدد مقاصد السماحة، بل اكتفت بمناحيها التعاملية، وما يترتب عليه، أو ما تحققه من علاقات، مع الإشارة إلى بعض النقاط الجديرة بالاهتمام، كذكر ابن عاشور: "الاعتدال والوسطية" التي تبرز المسلك الخلقي الهام للمسلم وعلاقته بالآخر، وفيها – أيضاً – توصيف لطبيعة هذه العلاقة، ثم يضبطها بذكره "أنها لا تفضي إلى ضرر وفساد". ومن المُسلم به أن التسامح لا يعني التساهل والتمييع للهوية الإسلامية، والتنازل عن قيمه وتصوراته إذ من الواجب أن تبقى الثوابت لها اعتبارها، في حين أن الإسلام يمد سبل التعاون الفعال مع الآخرين والتواصل معهم معبراً عن صدق مبادئه وواقعيتها، وشمول نظامه وفاعليته، ولعل هذا – أيضاً – ما حمل الأستاذ فهمي هويدي إلى قوله: "قد يكون مفهوماً ومقبولاً أن يذكر تسامح المسلمين إذا كنا نتحدث عن التاريخ في مقام المقارنة بتعصب الآخرين، ولكن عندما نكون بصدد عرض علمي وجاد لموقف الإسلام من الآخرين، فإنه لا يبقى ثمة مكان لمثل هذا الوصف، بل يصبح استخدامه بمثابة إقلال من قيمة الموقف الإسلامي الصحيح، ونيل من المكانة التي أعلى الله سبحانه بها الإنسان، كما أن لافتة التسامح لم يعد مقبولاً استخدامها في القاموس المعاصر"[١٠].

المبحث الثاني
التأصيل الشرعي للتسامح

ورد في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الكثير من التوجيهات الداعية إلى الرفق، ومقابلة السيئة بالحسنة، والإعراض عن الجاهلين، إذ إن الإسلام لا يقر المواقف الوقتية التي تصنعها انفعالات النفس، وتغلب عليها العاطفة، ولا يقر – أيضاً – حب الاستغلال والقهر والانتقام؛ لهذا تمثل الآية القرآنية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾[١١]، قاعدة مسلكية في تعامل المسلم مع غيره، وهو تعامل – كما يلاحظ في مدلول الآية – يغلب العفو والمسامحة على مقابلة العقاب بالمثل. وهو عفو يتصل بغايات وجودية كبرى، ومقاصد إنسانية نبيلة، حددتها نصوص الكتاب والسنة النبوية الصحيحة.إن الباحث في القرآن لن يجد الفعل (سمح) ومشتقاته فيه، ولكن وردت كلمات في معناه، كالصفح والعفو، والسلام ... ونحوها، في آيات كثيرة، وفصل العلماء مراد هذه الآيات، كقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[١٢]، هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله: (خُذ العفو) دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قوله: (وأمر بالعرف) صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار، وفي قوله: (وأعرض عن الجاهلين) الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم"[١٣].وقول السعدي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[١٤]، "المراد من الآية: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك أنك تخف الإساءة عنك في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى

---

(١٠)تسامح الغرب مع المسلمين في العصر الحاضر: عبد اللطيف بن إبراهيم، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٩ه–١٩٩٩م، ص٢٦–٢٧.

(١١)سورة النحل الآية: ١٢٦.

(١٢)سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(١٣)الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت ط٣ (١٤٢١ه–٢٠٠٠م)، ٣٤٤/٧.

(١٤)سورة فصلت الآية: ٣٤.

ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، وليتصف العافي بصفة الإحسان"(١٥). وقوله أيضاً في قوله تعالى: ﴿قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ "أي لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين"(١٦).وقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾(١٧) "أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إلي، كما قال عمر ﷺ ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه"(١٨).وهناك – أيضاً– الكثير من الأحاديث التي وردت في السنة النبوية المطهرة، التي تدعو للتسامح، وتؤكد عليه، منها:

– عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال ﷺ لأصحابه "ألا أخبركم بمن يحرم على النار، أو من تحرم النار عليه؟، كلُّ قريب هين لين(١٩). وقوله: هين، فعيل من الهون وهو السكون والوقار والسهولة، وأما اللين: فعلى كل قريب، أي من الناس بمجالستهم في محافل الطاعة، وملاطفتهم بقدر الطاعة، سهل: أي في قضاء حوائجهم، أو معناه أنه سمح القضاء، سمح الاقتضاء، سمح البيع، سمح الشراء، والحديث أفاد بأن النار تحرم على كل سهل طلق حليم لين الجانب(٢٠).

– وعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم اشد من يوم أحد؟. فقال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبدُ ياليلٍ بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[٢١]، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله (عز وجل) قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟. فقال له رسول الله ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدُ الله وحده لا يشرك به شيئاً"[٢٢].ومن كل هذه النصوص نستدل على الآتي:

أولاً: إن السماحة والرفق، ومقابلة السيئة بالحسنة مبدأ إسلامي أصيل، يقره ديننا، ويدعو إليه، ويحارب التعصب وانفعالات النفس التي لا تفيد.

ثانياً: إن هذا المسلك الخلقي متصل بمقاصد وغايات نبيلة؛ ولهذا لا يعد التسامح مسلكاً غائياً، ولكنه مادة خلقية لغايات عظيمة، كما تؤكد هذا النصوص النبوية السابقة، كحديث "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً"[٢٣].

ثالثاً: التسامح لا يعني التساهل، أو التنازل عن المبادئ والقيم، ولكن التواصل والاستفادة من الآخر، وبيان محاسن الإسلام، كما في الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[٢٤]،

---

(١٥)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة ط١، ١٤٢٠ه–٢٠٠٠م: ٥٥٨/١.

(١٦)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: مرجع سابق، ٤٠٤/١.

(١٧)سورة المؤمنون الآية: ٩٦.

(١٨)تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، دار الفكر للنشر والتوزيع ١٤٠٠ه–١٩٨٠م، ١٨١/٧.

(١٩)أخرجه الترمذي في سننه ٦٥٤/٤ حديث رقم ٢٤٨٨، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦١١/٢ حديث رقم ٩٣٨.

(٢٠)تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحيم المباكفوري، دار الكتب العلمية – بيروت ١٦٠/٧–١٦١.

(٢١)بقرن الثعالب: بسكون الراء ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة، معجم البلدان ٣٣٢/٤.

(٢٢)أخرجه البخاري في صحيحه ١١٨٠/٣، حديث رقم ٣٠٥٩، ومسلم في صحيحه ٤١٠/٦–٤١١، حديث رقم ١٧٩٥ واللفظ له.

(٢٣)سبق تخريجه في هامش ٢٢.

(٢٤)سورة الأعراف الآية: ٩٩.

رابعاً: إن التسامح قاعدة مسلكية إسلامية، تلزم المسلم الأخذ بها، والتخلق بأخلاقها، وله بهذا ثواب الله ورضاه في دنياه وآخرته، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٥].

المبحث الثالث
مظاهر التسامح وصوره

إن للتسامح مظاهر وصوراً، سوف يقف البحث على بعضها في عدة مطالب، وذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول: الرحمة:

اتصف الله بالرحمة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[٢٦]، ومن أسماء الله الرحمن والرحيم، إذ برحته يهدي عباده إلى سبيل سعادتهم، وبرحمته نزل عليهم الشريعة الكفيلة بتحقيق الخير، والسعادة لهم في الدنيا والآخر، وبرحمته يُدخل المؤمنين في جنته، وبرحمته يغفر للمسيئين[٢٧].وقد وردت أحاديث تؤكد على تخلق المسلمين بهذا الخلق، فعن جرير بن عبد الله ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس"[٢٨]. قال ابن حجر: "وفي الحديث الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر، والبهائم المملوكة منه وغير المملوك"[٢٩]، فهي مشروعة لجميع الخلق، حتى لو كانت بيننا وبينهم عداوة ما لم يقاتلوننا، ولا تعارض بين الرحمة العامة التي يستحقها جميع الخلق وبين الشدة على الكفار؛ لأن الغاية من هذه الشدة منع شرورهم، وهذا المنع هو من الأمور العظيمة التي تستدعيها الرحمة[٣٠].ولقد كان النبي ﷺ رحيماً مع كل الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٣١]، وتجلت رحمته في وصية لأصحابه عند خروجهم لقتال الكفار، بألا يتعرضوا بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال، كالمرأة، والصبي، والشيخ الفاني، والزمن[٣٢].

– فعن سليمان بن بريدة، عن أبيه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمرَّ أميراً على جيش أو سريَّة، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: "اعزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، واغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً..."[٣٣]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "وُجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان"[٣٤]. قال النووي في هذا الحديث: "أجمع العلماء على تحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا قال جماهير العلماء: يقتلون"[٣٥].

---

(٢٥)سورة النور الآية: ٢٢.

(٢٦)سورة غافر الآية: ٧.

(٢٧)الأخلاق الإسلامية: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم – دمشق ط٢، ١٤٠٧-١٩٨٧م، ١٦/٢.

(٢٨)أخرجه البخاري في صحيحه ٢٦٨٨/٦، حديث رقم ٦٩٤١، وفي الأدب المفرد ٤٨/١، حديث رقم ٩٦.

(٢٩)فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩ه ٤٤٠/١٠.

(٣٠)الأخلاق الإسلامية، مرجع سابق، ١٩/٢.

(٣١)سورة الأنبياء الآية: ١٠٧.

(٣٢)الزمن: ذو العاهة، زمن بزمن زمناً وزمنه وزمانه: لسان العرب ١٩٩/١٣.

(٣٣)أخرجه مسلم في صحيحه ٣١٤/٦، حديث رقم ٤٤٩٧.

(٣٤)أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٩٨/٣ (٢٨٥٢)، ومسلم في صحيحه ٣٢٤/٦، حديث رقم ١٧٤٤.

(٣٥)شرح النووي لصحيح مسلم: لأبي زكريا يحي بن شرف، دار إحياء التراث العربي – بيروت ط٢ (١٣٩٢ه) ٤٨/١٢.

– وعن رباح بن الربيع قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً فقال: "أنظر علام اجتمع هؤلاء؟، فجاء فقال: على امرأة قتيل، فقال: "ما كانت هذه لتقاتل؟"، قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلاً فقال: "قل لخالد: لا تقتلن امرأة ولا عسيفاً"[٣٦].

وغضب النبي ﷺ أشد الغضب لما علم أن جنده قتلوا بعض الأطفال، فعن الأسود بن سريع قال: كنا في غزاة فأصبنا ظفراً، وقتلنا من المشركين حتى بلغ بهم القتل إلى أن قتلوا الذرية، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: "ما بالُ أقوام بلغ بهم القتل إلى أن قتلوا الذرية، ألا لا تقتلن ذرية، ألا لا تقتلن ذرية"، قيل: لم يا رسول الله، أليس هم أولاد المشركين؟، قال: "أو ليس خياركم أولاد المشركين"[٣٧].

المطلب الثاني: الإحسان إلى غير المسلمين:

يقيم الإسلام العلاقة بين المسلمين وغيرهم – ممن لم يقاتلوهم في الدين، أو يخرجوهم من ديارهم – على البر والإقساط والإحسان، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣٨]. يقول القرطبي في هذه الآية: "هي رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين، ولم يقاتلوهم، أن يبروهم ويقسطوا إليهم، أي يعطوهم قسطاً من أموالهم على وجه الصلة"[٣٩]، ويقول ابن كثير: "لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم"[٤٠]، ويقول الشيخ محمد بن عثيمين (عليه رحمة الله): "أما مبرتهم فأن نحسن إليهم، وأما الإقساط إليهم فأن نعاملهم بالعدل، ومعاملة الإنسان لغيره لا تخلو من ثلاث حالات: إما أن يعامل بالإحسان، وإما أن يعامل بالعدل، وإما أن يعامل بالجور"[٤١]. وأوضح القرافي[٤٢] وجوهاً للبر والإحسان إلى المخالفين فقال: "الرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال إذايتهم في الجور مع القدرة على إزالته، لطفاً منا لهم، لا خوفاً وتعظيماً والدعاء لهم بالهداية"[٤٣]. ومن صور الإحسان – أيضاً – إلى المخالفين في الدين:

(أ) **الأمر بالإحسان إلى الوالدين غير المسلمين**، ثم الأقربين على حسب درجات قربهم، قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[٤٤]، وقد وردت أحاديث تدل على ذلك منها:

---

(٣٦)أخرجه أحمد في مسنده ٤٨٨/٣، حديث رقم ١٦٠٣٥، وأبو داود في سننه ٦٠/٢، حديث رقم ٢٦٦٩، وابن حبان في صحيحه ١١٢/١١، حديث رقم ٤٧٩١، وقال الألباني في تعليقه على سنن أبي داود: حسن صحيح ٦٠/٢، حديث رقم ٢٦٦٩.

(٣٧)أخرجه النسائي في السنن الكبرى ١٤٨/٦، حديث رقم ٨٦١٦، من طريق هشيم، ثنا يونس، عن الحسن، قال حدثنا الأسود بن سريع. وإسناد صحيح.

(٣٨)سورة الممتحنة الآية: ٨.

(٣٩)الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ٥٣/١٨.

(٤٠)تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٣٥٠/٤.

(٤١)الأقليات الإسلامية: أسئلة وأجوبة لسماحة الشيخين: ابن باز، وابن عثيمين، إعداد: د. عبد الله الطيار، دار الوطن – الرياض ط١ (١٤١٥-١٩٩٢م)، ص(٧٢).

(٤٢)القرافي: أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس شهاب الدين القرافي، نسبته إلى القرافة، المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي، من علماء المالكية، فقيه، أصولي، مفسر، ولد بمصر، وتوفى بها سنة ٦٤٨هـ، له مصنفات جليلة، منها أنوار البروق في أنواء الفروق، والأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، وغيرها، الأعلام ٩٥/١، معجم المؤلفين ١٠٠/١.

(٤٣)الفروق: لأبي العباس أحمد بن إدريس القرافي، وبهامشه الكتابين: تهذيب الفروق، والقواعد السنية، عالم الكتب – بيروت، ١٥/٥.

(٤٤)سورة لقمان الآية: ١٥.

– عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: "أتتني أمي راغبة[٤٥] في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ أأصلها؟، قال: "نعم"، قال ابن عيينة: فانزل الله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[٤٦]، [٤٧].

وفي لفظ: "قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قدمت علي أمي وهي راغبة أفاصل أمي؟ قال: "نعم صلي أمك"[٤٨]، قال ابن حجر: "والبر والصلة والإحسان لا يستلزم منها التحابب والتودد المنهي عنه في قوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ ﴾[٤٩]، فإنها في حق من قاتل ومن لهم يقاتل"[٥٠].

(ب) **تخليص الأسرى من الأسر وإطعامهم وكسوتهم**، فقد أوصى النبي ﷺ أصحابه الكرام بحسن معاملة الأسرى، وحث على إطعامهم، وكسوتهم، والإحسان إليهم، والعناية بشأنهم حتى يحكم فيهم، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "فكوا العاني، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض"[٥١]، وعن أبي عزيز ابن عمير أخي مصعب بن عمير ﷺ، قال: كنت في الأسارى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: "استوصوا بالأسارى خيراً"، وكنت في نفر من الأنصار، وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم، أكلوا التمر وأطعموني الخبز لوصية رسول الله إياهم[٥٢].

وأصيب عمر بضربة رجل من أهل الذمة، هو: أبو لؤلؤة المجوسي، فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده، وهو على فراش الموت قائلاً: "أوصي الخليفة من بعدي بذمة الله، وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم"[٥٣].

(ج) **الإحسان إلى المسنين والضعفاء منهم:** فمن سماحة الإسلام في المسؤولية والجزاء في تحصيل الجزية، أنها تسقط عمن أسلم ولا يطالب بما عليه قبل إسلامه، ولا تؤخذ من الشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل ولا شيء له، وكذلك المغلوب على عقله لا يؤخذ منه شيء[٥٤]. وهذا ما فعله خالد بن الوليد ﷺ في صلحه مع أهل الحيرة في عهد أبي بكر ﷺ، قال: "وجعلت لهم أيما شيخ ضعيف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام"[٥٥].

([٤٥])راغبة: أي طامعة تسألني شيئاً: النهاية في غريب الحديث ٥٨٣/٢.

([٤٦])سورة الممتحنة الآية: ٨.

([٤٧])اخرجه أحمد في مسنده ٣٤٤/٦، حديث رقم ٢٦٩٥٨، والبخاري في صحيحه ٢٢٣٠/٥، حديث رقم ٥٦٣٣.

([٤٨])أخرجه البخاري في صحيحه ٩٢٤/٢، حديث رقم ٢٤٧٧، ومسلم في صحيحه ٣٢٧/٤-٣٢٨، حديث رقم ١٠٠٣.

([٤٩])سورة المجادلة الآية: ٢٢.

([٥٠])فتح الباري، مرجع سابق، ٢٣٣/٥.

([٥١])أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٤/٤، حديث رقم ١٩٥٣٥، والبخاري في صحيحه ١١٠٩/٢، حديث رقم ٢٨٨١.

([٥٢])أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٩٣/٢٢، حديث رقم ٩٧٧، وفي المعجم الصغير ٢٥٠/١، حديث رقم ٤٠٩، من طرق عن بكر بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، حدثني نبيه بن وهب، عن أبي عزير بن عمير أخي مصعب بن عمير. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ١٨٥/١، حديث رقم ١٨٤٣.

([٥٣])أخرجه البخاري في صحيحه ١١١١/٣، حديث رقم ٢٨٨٧، وذكره ابن حجر في فتح الباري ٢٦٧/٦.

([٥٤])الخراج: لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، المطبعة السلفية ومكتبتها، ص ١٢٣.

([٥٥])الخراج: المرجع السابق، ص١٤٤.

وذات يوم مرَّ عمر بن الخطاب ﷺ بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: "من أي أهل الكتاب أنت؟، فقال: يهودي، قال: فما ألجاك إلى ما أرى؟، قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. فأخذ عمر بيده وذهب بن إلى منزله فرضخ[٥٦] له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)[٥٧]. والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين منهم أهل الكتاب، إذ وضع عنه الجزية، وعن ضربائه[٥٨]؛ ومن ثم يتأكد أن الدولة الإسلامية ملزمة بإعالة المحتاجين من أهل الذمة، وهذا الإلزام يعتبر صورة من صور الضمان الاجتماعي، الذي طبقته الدولة الإسلامية عملاً بتعاليم الإسلام دون الالتفات إلى دين الذمي وعقيدته[٥٩].

(د) **دفن جثث قتلاهم:** فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش من المشركين، إذ جاءه عقبة ابن ابي معيط بسلي جزور، وقذفه على ظهر النبي ﷺ فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك، فقال النبي ﷺ: "اللهم عليك الملا من قريش، اللهم عليك أبا جهل ابن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلفٍ، أو أبي بن خلف"، فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر فألقوا في بئر غير أمية أو أبي، فإنه كان رجلاً ضخماً فلما جروه تقطعت أوصاله قبل أن يلقى في البئر[٦٠].

فدفن القتلى وعدم تكرهم لوحوش الأرض والطيور، وإن كانوا أعداءً، احتراماً لإنسانيتهم وانسجاماً مع مبادئ الرحمة والرأفة التي أولاها الإسلام عنايته في تشريعاته كلها، وحث المسلمين الالتزام بها في حروبهم مع أعدائهم، فقد أمر الرسول ﷺ بوضع جثث القتلى من المشركين يوم بدر في القليب وهي بئر جافة فطرحوا فيه إلا أمية بن خلف فإنه كان رجلاً سميناً، فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه، وتقطعت أوصاله، فتركوه، وألقوا عليه ما غيبه في التراب والحجارة[٦١].

المطلب الثالث: العفو عن المسيئين:

الناظر في كثير من نصوص القرآن والسنة، وسيرة الرسول ﷺ وصحابته يجدها تدعو إلى التسامح، كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٦٢]، وقوله: (فاصفح الصفح الجميل)[٦٣]، وقد وصف العلماء هذا الصفح الجميل بأنه صفح في علو من غير استسلام للشر، أو خضوع للأشرار، فإن كان ما يوجب العقاب فينبغي أن يكون في دائرة الأخذ بالحق من غير اعتداء حتى لا يظهر ذلك التسامح ذلاً ومدعاة إلى تمرد الأشرار، والتمادي في الباطل من دون رادع، وعند ذلك لا يؤدي التسامح غرضه في بناء الكرامة الإنسانية

---

(٥٦)فرضخ: أرضخ العطية القليلة: لسان العرب ١٩/٣.

(٥٧)سورة التوبة الآية: ٦٠.

(٥٨)أحكام أهل الذمة: لابن قيم الجوزية، تحقيق: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين – بيروت ط٣، ١٤١٤ه-١٩٨٢م، ٣٨/١، الخراج ص١٢٦.

(٥٩)أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٢ه ص١٠٥ بتصرف.

(٦٠)أخرجه البخاري في صحيحه ١١٦٣/٣، حديث رقم ٣٠١٤، ١٣٩٩/٣، حديث رقم ٣٦٤١، ومسلم في صحيحه ٤٠٧/٦- ٤٠٨، حديث رقم ١٧٩٤.

(٦١)الأحكام السلطانية والولايات العامة: لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية – بيروت ص٩١، سيرة ابن هشام ٢٩٢/٢.

(٦٢)سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٦٣)سورة الحجر الآية: ٨٥.

وتعاون الأمم وتقدمها[٦٤]، وقد طبق الرسول ﷺ مبدأ التسامح والصفح الجميل في علاقاته مع غير المسلمين في معاهداته وحروبه، ومن صوره:

(أ) **عفوه وصفحه عن أشد خصومه يوم فتح مكة:** إذ اجتمع أهل مكة أما رسول الله ﷺ يوم الفتح وكلهم في وجلٍ ينتظرون ماذا يصنع بهم الرسول ﷺ جزاء ما ارتكبوه من جرائر ضد الإسلام والمسلمين، لكنه ﷺ عفا عنهم.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة استعمل الزبير بن العوام على إحدى المجنبتين[٦٥]، وخالد بن الوليد على الأخرى، وذكر الحديث وفيه: فجاء رسول الله ﷺ حتى طاف بالبيت فجعل يمر بتلك الأصنام فيطعنها بسية[٦٦] القوس ويقول: "جاء الحق وزهن الباطل إن الباطل كان زهوقاً"، حتى إذا فرغ وصلى جاء فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال: "يا معشر قريش ما تقولون؟"، قالوا: نقول ابن أخ وأبن عم رحيم كريم، ثم عاد عليهم القول، قالوا: مثل ذلك، قال: "فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"، فخرجوا فبايعوه[٦٧].

وعن أبي بن كعب ﷺ قال: "لما كان يوم أُحد قتل من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوماً مثل هذا من المشركين لنربينَّ[٦٨] عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يُعرف: لا قريش بعد اليوم، فنادى منادي رسول الله ﷺ أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً ناساً سماهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[٦٩]، فقال رسول الله ﷺ: "نصبر ولا نعاقب"[٧٠]، ومن ثم كان التسامح والصفح سمة بارزة للإسلام، وبني الإسلام.

(ب) **عفوه عن اليهود الذين استهزأوا به:** فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: "مهلاً يا عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله"، فقلت يا رسول الله: أو لم تسمع ما قالوا؟، قال رسول الله ﷺ: "فقد قلت وعليكم"[٧١]، قال النووي: "وهذا من عظيم خلقه ﷺ وكمال حلمه وحثه على الرفق، والصبر، والحلم، وملاطفته الناس ما لم تدع حاجة إلى المخاشنة"[٧٢]

---

(٦٤)العلاقات الدولية في الإسلام، د. وهبة الزحيلي، مؤسسة الرسالة – بيروت ط٤ (١٤١٧ه-١٩٩٧م)، ص٦٢.

(٦٥)المُجنبتين: بضم الميم، وفتح الجيم، وكسر النون: الميمنة والميسرة، شرح النووي ١٢٦/١٢.

(٦٦)بسية القوس: ما عطف من طرفيها، لسان العرب ٤١٧/١٤، النهاية في غريب الحديث ١٠٦٢/٢.

(٦٧)أخرجه أحمد في مسنده ٥٨٣/٢، حديث رقم ١٠٩٦١، ومسلم في صحيحه ٣٨٨/٦-٣٩٠، حديث رقم ١٧٨٠، والنسائي في سننه الكبرى ٣٨٢/٦، حديث رقم ١١٢٩٨.

(٦٨)لنربين: أي في التمثيل، النهاية في غريب الحديث ٤٦٧/٢.

(٦٩)سورة النحل الآية: ١٢٦.

(٧٠)أخرجه أحمد في مسنده ١٣٥/٥، حديث رقم ٢١٢٦٧ من طريق هدبة بن عبد الوهاب المروزي، ثنا الفضل بن موسى، ثنا عسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب. وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٧١)أخرجه البخاري في صحيحه ٢٢٤٣/٥، حديث رقم ٥٦٨٣، ومسلم في صحيحه ٢٦٧/٧، حديث رقم ٢١٦٥.

(٧٢)شرح النووي لصحيح مسلم، مرجع سابق، ١٤٥/١٤.